نشاط مدينة تنس التجاري
في العصور الوسطى

د/ فاطمة الزهراء بوعمامة
المدرسة العليا للأساتذة

يعتبر الحوض الغربي للبحر المتوسط من أبرز المراكز الاستراتيجية الحساسة في العلاقة التي تربط بين البلدان المطلة عليه شمالا و جنوبا، لذلك عرف صراعا عسكريا حادا منذ العصور القديمة لكن هذا الصراع لم يؤثر كثيرا في المبادلات التجارية بين بلدان هذا الحوض مما ادى إلى اشتداد التنافس في الميدان التجاري بين تجار هذه الدول.

علاقة النشاط التجاري بظهور المدن:

إن التطور العمراني الكبير الذي نلاحظه خلال فترة ازدهار الحضارة الاسلامية يعتمد أساسا على الإزدهار الاقتصادي، إن هذا الازدهار الاقتصادي يكاد ينحصر عصرئذ في النشاط التجاري، وهو نشاط يكمن وراء تطور المدن وانتشار شبكة المسالك التجارية البرية والبحرية، وأشار ابن خلدون على العلاقة بين التطور العمراني وما يرافقه من تأثير مباشر في حياة السكان والازدهار الاقتصادي وقال: " ومتى عظم الدخل والخرج اتسعت أحوال السكان ووسع المقر" [1].

ويذكر برودال حول المدن: " ....نقاط جامدة فوق الخرائط، فهي تتغذى من الحركة، وما تجارتها إلا حركة" [2]، ويضيف: " ...إن تحول المسالك، أو تدهورها يضعف الحركة فيتقلص ظل المدينة، إن المدينة تجذب إليها سكانا جددا، تجذبهم بأنوارها، وبحرياتها الحقيقية أو الظاهرة، وتجذبهم بالخصوص بأجورها الممتازة، فإذا فقدت المدن هؤلاء الناس الجدد فإنها تتوقف عن الحياة من دون ريب" [3].

أما عبد الله العروي فيرى أن الفضل في التطور الاقتصادي والتجاري لبلاد المغرب لا يعود إلى العرب الفاتحين، وقد كانوا منشغلين بأشياء أخرى، بل يعود إلى فئات البربر المنطوين تحت لواء إمارات المغرب الأوسط، وأن حروب الفتح قد ألجأتهم إلى الجنوب،

---

[1] ابن خلدون: مقدمة القاهرة 1967، ص 996

[2] انظر F.braudel : civilisation materielle et capitalisme, Paris, 1967, P372

[3] أنظر
ibidem:374

وجاء نتيجة ذلك الاندماج الاقتصادي بين الصحراء والمناطق الشمالية للمغرب لعل ذلك يمثل الظاهرة الأساسية للقرن التاسع الميلادي" [1]

وجهات النظر هذه ما هي إلا تأكيد لأسباب وظروف نشأة بعض المدن الساحلية في المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط، ومن هذه المدن مدينة تنس – كيرتن Kerten وهي التسمية القديمة، إذ كانت مركز عبورا لبضائع المناطق الجنوبية إلى بلاد الأندلس كما كانت مسلك البضائع المنقولة من وإلى مدينة تاهرت [2]، وهذا المرفأ الاستراتيجي هو الذي أبرز مدينة تنس في هذا العصر كما سيوضح.

أهمية موقع مدينة تنس:

إن أهمية موقع تنس بصفة خاصة لا ينفصم عن أهمية الموقع الجغرافي لبلاد المغرب الاسلامي ويظهر ذلك في جناحيه الغربي والشرقي، فلا تفصل سهول المغرب الأدنى والمغرب الأوسط عن شواطئ البحر المتوسط، وسهول المغرب الأقصى عن سواحل المحيط الأطلسي والبحر المتوسط من جهة وصقلية، وبلاد الأندلس من جهة ثانية إلا ساعات قليلة، وقد تميزت المدن الواقعة على ضفتي المضيقين بنشاط تجاري قديم [3].

إلى جانب هذا فإن الحوض الغربي للبحر المتوسط يتصل بأوسع منطقة جغرافية تشرف على الصحراء، فبعد الواجهة البحرية تبدأ منطقة الهضاب الفاصلة بين الساحل والصحراء، وقد كان لهذا الموقع الجغرافي الخاص أثر بالغ في تطور المسالك التجارية جنوبا- شمالا، وغربا- شرقا. وفي ازدهار التجارة، خاصة ذهب بلاد السودان، والعبيد [4]، وكانت المدن الساحلية عبارة عن مخازن للبضاعة.

---

[1] أنظر: Abdullah Laroui : l'histoire du maghreb, Paris, 1970.P119

[2] تاهرت أو تيهارت: كانت عاصمة الأئمة الإباضية من بين عبد الرحمن بن رستم، اختط عبد الرحمن بن رستم عاصمته بسفح جبل كزول على رأس تلول منداس شرقي نهر مينا سنة 144هـ/761م، ودام ملك الأسرة الرستمية بتاهرت إلى سنة 298هـ، وبعد سقوط الرستميين، أصبحت تاهرت نقطة عراك بين الشيعة ومغراوة فتغلب عليها محمد بن الخير أحد ملوك وهران ونزلت عساكر بني أمية بها أيام المنصور بن عامر غير أنها بقيت بأيدي الشيعة إلى أن استولى عليها المرابطون ثم الموحدون، محمد احمد أبي رأس الناصر: عجائب الأسفار ولطائف الاخبار،تقديم و تحقيق المخطوط محمد عالم،الجزائر ،مركز البحث في الأنثروبولوجية الاجتماعية والثقافية، 2008، ص 30

[3] الحبيب الجنحاني: المجتمع العربي الاسلامي، الكويت، مطابع السياسة 2005، ص 75-76

[4] أنظر: Maurice Lombard : l'islam dans sa premeire grandeur (VIII es- XI es), Paris 1971,P 155

ويصف ابن حوقل (ق 4هـ/10م) تنس فيقول: " كانت تتوزع بين سهل وجبل وهي مسورة حصينة، بينها وبين البحر ميلان،داخلها قلعة صعبة....من الخصب في جميع الرفهة هكذا –بأمر مستفاض" [1].

أما البكرى (ق 5هـ/11م) فيقول عنها: " تنس بينها وبين البحر ميلان.....وهي على نهر يسمى تناتين يأتيها من جبال على مسيرة يوم يأتيها من القبلة ويستدير بها من جهة الجوف والشرق، وبريق في البحر. [2]

إذا فالمدينة محصنة بريا وتصلة بالبحر عن طريق مجرى الواد، مما زاد من حصانتها وجود السور الذي يحميها والواد الذي يعيق من يريد الهجوم عليها، فهذا الموقع المحصن جعل التجار يتخذونها مكان لإقامتهم، ونشاطهم، فأقاموا بها مدينة حديثة تميزت بأهمية تجارية منفردة في العصور الوسطى.

نشأة مدينة تنس سنة 262هـ/ 875م ونموها:

أهمية مرفأ تنس للتصدير البحري كان سبب في نشأتها وكانت تنس تتألف من مدينتين: تنس القديمة التي ترجع إلى العهد الروماني وفيها يقول البكرى: " وعلى البحر حصن يذكر أهل تنس أنه كان القديم المعمور قبل هذه الحديثة" [3]، " وتنس الحديثة ويذكر عنها البكرى أيضا: " بها مسجد جامع وأسواق كثيرة....وبها حمامات، وتنس هذه هي التي تسمى تنس الحديثة" [4].

ابتداء أمر مدينة تنس كان سوقا، بدأ ينمو ويجذب إليه الناس، ويبدو أن الأرباح التي حققتها القبائل المجاورة هي التي دفعت بها إلى دعوة التجار الأندلسيين إلى قلعة تنس لكي يتخذوها سوقا ويجعلوها سكنى [5]، ووعدتهم بالعون والرفق وحسن المجاورة، وحسن علاقة البادية بالمدينة عامل مهم في تطور المدينة،و لما كان التجار أنفسهم بحاجة إلى قاعدة آمنة ينزلون بها ويشتون بها، فقد لبوا دعوة القبائل ونزلوا القلعة وخيموا بها وانتقل إليهم من جاورهم من أهل الأندلس [6]، وأهل البيرة وأهل تدمير [7]، وكان منهم الكركرنى، وأبو عايشة وصهيب [1].

---

[1] ابن حوقل: صورة الأرض، بيروت، منشورات دار مكتبة الحياة، د ت، ص 78.

[2] البكرى: المغرب في ذكر افريقيا والمغرب، باريس، طبعة دى سلان، د-ت، ص 61

[3] البكرى: المصدر نفسه.

[4] البكرى: المصدر نفسه

[5] البكرى: المصدر نفسه

[6] جودت عبد الكريم يوسف: الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثالث والرابع الهجرين (9-10م)، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، د ت، ص 358-359

[7] تدمير: مدينة على ساحل الاندلس، تصلها المراكب المقلعة من تنس في يوم وليلة، ياقوت الحموى: معجم البلدان، بيروت، 1957 ، ج2، ص 371

إلا أن الوباء أصاب أهل المدينة، مع دخول الربيع فاستوبؤا المناخ وغادر بعضهم المدينة وبقي البعض الآخر، ويقول البكرى في هذا: " فلما دخل عليهم الربيع اعتلوا واستوبؤا الموضع فركب البحريون من أهل الأندلس مراكبهم وأظهروا لمن بقي منهم أنهم يمتارون....اما الباقون في تنس فلم يزالو في تزيد الثروة وعدد... [2]"

وانعكس هذا الرخاء على عمران تنس وكان الدافع إلى انتقال أهل سوق ابراهيم [3] وكانوا في أربع مائة بيت وتعاونوا على البنيان و اتخذوا الحصن الذي بها، وعرفت المدينة في هذه المرحلة اتساعا من حيث النسيج العمراني، وازدهرت تجارتها الأمر الذي جعل منها محطة مهمة على المسالك البرية، والطرق البحرية خلال فترة العصور الوسطى.

ويذكر البكرى أنه كان للمدينة في زمانه أبواب:" ولها بابان إلى القبلة باب البحر وباب ابن ناصح و باب الخوخة شرقي وخارج باب الخوخة توجد عين غزيرة المياه [4]، وقال عنها ابن حوقل أنها مدينة فوق الصغيرة [5] ويعتبرها الاصطخرى (ق 4هـ/ 10م) أنها مدينة كبيرة [6].

حكمت مدينة تنس أسرة ابراهيم التي تنتمي إلى الأشراف السليمانين- دانت لسلطان الأمويين في الأندلس، ثم تناوب على حكمها منذ القرن الرابع الهجري (10م) عدة دول كانت تتنازع حكم المغرب الأوسط وهي العبيديون، ولما انتقل المعز إلى مصر، استولى عليها بلكين بن زيري من صنهاجة، وملكها كغيرها من أمصار المغرب الأوسط ثم ملكها المرابطون فالموحدون إلى أن حكمها بنومنديل أمراء مازونة في القرن السابع الهجري (13م)، ولما قام الحكم الزياني بتلمسان استولى عليها السلطان عثمان الذي استلحم مغزاوة وعفا رسمهم وقطع ملكهم [7]، وفي النصف الثاني من القرن التاسع الهجري (15م)، استقلت عن السلطة المركزية بسبب النزاع بين أفراد الأسرة الزيانية ، فخضعت لفرع منها بادئ الأمر ثم ملكها شيوخ من أهلها

---

[1] البكرى: المصدر السابق

[2] المصدر نفسه.

[3] سوق ابراهيم: ينسب إلى بنى ابراهيم، والذي هو غربي العروسى حيث مصب ايسلى في واد الشلف، هي آخر مدن العلويين باتجاه تاهرت، وحدد ابن حوقل موقعها فذكر أنها على نهر شلف ، ابن حوقل، المصدر السابق، ص 89، اليعقوتي ، تاريخ البلدان، بيروت، دار الفكر، 1375هـ/ 1956م، ص 13.

[4] البكرى: المصدر السابق، ص 61.

[5] ابن حوقل، المصدر نفسه.

[6] الاصطخرى، المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر عبد العال العيني، القاهرة، دار القلم، 1381هـ/ 1961م، ص 38.

[7] محمد بن احمد ابي راس الناصر: المصدر السابق،ص 22.

وحافظت مدينة تنس على علاقتها الخارجية خاصة مع الأندلسيين خلال فترة حكم الدولة الموحدية، وأما في العهد الزياني فقد تعرضت إلى حروب عديدة مما كان له تأثير سلبي عليها.

نشاط مدينة تنس التجاري:

سبق الإشارة إلى أن الحوض الغربي للبحر المتوسط يعد من أبرز المراكز الاستراتيجية الحساسة في العلاقة التي تربط بين البلدان المطلة عليه شمالا وجنوبا منذ العصور القديمة، هذا ويمكن تحديد ثلاث مناطق تجارية أساسية لهذه المنطقة في العصر الوسيط:

- **المنطقة الأولى:** افريقية وأبرز مراكزها القيروان
- **المنطقة الثانية**، فهي منطقة المغرب الأوسط، وتتصل المسالك التجارية فيها بمدينة تاهرت، وهي مركز تجاري حساس يربط مسالك الصحراء بالأندلس وجزر البحر المتوسط عن طريق ميناء تنس وحلقة وصل أساسية في التبادل التجاري بين المغرب والمشرق.
- **المنطقة الثالثة:** وهي بلاد المغرب الأقصى بواجهتيها البحريتين المحيط الأطلس، وواجهة البحر المتوسط [1].

كما عرفت الواجهة الساحلية للمغرب الأوسط بداية من القرن 3هـ/9 م نشاط تجاري هام بفضل قيام الملاحة الأندلسية بتأسيس عدة مدن وموانئ على الساحل وتخصص هؤلاء في شراء منتوجات المغرب وبيعها في الأندلس بعدما تمكنوا من بناء مدن تنس، ووهران، ومرسى الحجاج، كما يعود الفضل في هذا النشاط التجاري إلى سياسة خلافة قرطبة التي اهتمت بربط الأندلس ببقية العالم الاسلامي تجاريا [2].

وكان انتاج تنس من الحبوب والفواكه المختلفة يفيض عن الحاجة المحلية، فكان مفروضا على المنطقة أن تلعب دورا تجاريا، وبالفعل كان يحمل منها إلى الأندلس وافريقية والمغرب الأقصى، فكان والحالة هذه لابد أن يقوم في المنطقة مركز تجاري تجتمع فيه القبائل للتبادل التجاري [3].

---

[1] الحبيب الجنحانى: المرجع السابق، ص 79

[2] أنظر: Mahmoud –Agha Bouayed : le port de Hunayn, trait d'union entre le Maghreb central et l'Espagne au moyen-age, dans relationes de la peniasula Iberica con El Maghrebs siglos XIIIe XVI, Actas del coloqiuo- Madrid 17-18 decembre, 1988,P326-327.

[3] جودت عبد الكريم يوسف: مرجع السابق، ص 358

وذكر الاصطخرى أهمية تنس التجارية: " وأما تنس فهي كبيرة، وهي عدوة الأندلس [1]".ويؤكد قوله صاحب الاستبصار فيقول: " هي رخيصة الأسعارو منها يحمل الطعام إلى الأندلس [2]

ولم يكن لوفرة المنتوجات الزراعية بأسواق تنس السبب الوحيد لبروز تجارتها البحرية، وانما هو أيضا نتيجة لنشاط التجارة في تاهرت [3] فكانت تصدر إلى بلاد الأندلس سلعها من حبوب، ولحوم وصوف وخاصة الذهب والعبيد.

اما السلع التي كانت تقتنيها من بلاد الأندلس فهي كثيرة نذكر منها: الحديد، والكتان والرصاص والنحاس التي اشتهرت به مدينة البيرة، ومن طليطلة الصبغ السماوى والزعفران، ومن المرية الحرير، اما في قرية مغام- قرب طليطلة- كان يوجد الطين المأكول ويقول عنه الاصطخرى: " هو في لذاذة الأكل وفي تنظيف وغسل الشعر [4]". كما كان يوجد في الأندلس الياقوت الأحمر، والزئبق والكبريت والتوتيا، خاصة في مدينة تدمير ونواحها [5]ويذكر ابن الشباط أن هذه المعادن كانت تسفن إلى جميع الآفاق من البيرة [6] إذا حتما كانت تنقل هذه السلع إلى تاهرت عبر ميناء الأندلس.

هذا وقد ظهرت مرافئ عدة على الساحل مثل مرفآ جزيرة بني مزغنة، فذكر المقدس (ق4هـ/ 10م) انها على الساحل البحر مسورة يعبر منها إلى الأندلس [7]، ووهران التي يقلعون منها إلى الأندلس وفي يوم ليلة [8] ومرسى الحجاج، ومرسى فروخ الذي ذكر اليعقوبي بشأنه أنه " ترسى به مراكب تاهرت [9]، ومرسى الخزر.

---

[1] الإصطخرى: المصدر السابق، ص 83

[2] مؤلف مجهول: كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، جامعة الاسكندرية، كلية الآداب 1985، ص 127

[3] الاصطخرى: المصدر نفسه

[4] الاصطخرى: المصدر نفسه، ص 36

[5] الإدريسي: صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ليدن، مطبعة بريل، 1968، ص 88-178، البكرى: جغرافية الأندلس وروبا، تحقيق عبد الرحمن على الحجي، بيروت، دار الارشاد للطباعة والتوزيع، ط1، 1387هـ/1968م، ص 85-88، 128-129

[6] ابن شباط: صلة السمط وسمة المرط، قطعة في وصف الأندلس وصقلية، نشر احمد مختار العبادى، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية، مدريد 1967، ص 102

[7] المقدسي: احسن التقاسييم في معرفة الاقاليم، ليدن، مطبعة بريل، ط2، 1906، ص 228

[8] المقدسي: المصدر نفسه،

[9]ذكر الأدريسي هذا الميناء بمرسة الفروج، انظر المصدر السابق، ص 100- أما اليعقوبي فذكره بمرسى الفروخ، أنظر المصدر السابق، ص 353

وأشار الاصطخرى أن تجار تاهرت كانوا يستعملون أيضا مرسى نكور لأن بين تاهرت ونكور عشرون مرحلة، هكذا كانت تنقل السلع من تاهرت إلى هذه الموانئ برا ومنها إلى الأندلس بحرا.

غير أن الحركة التجارية كانت أنشط في ميناء تنس ومرسى فروخ وهذا حسب ما أورده اليعقوبي فيقول: " ...إن المسافر من افريقية إلى جزيرة الاندلس يركب البحر مسحلا غير موغل إلى تنس أوصار الى تاهرت يوافئى جزيرة الأندلس فيقطع اللج في يوم وليلة حتى يصير إلى بلد تدمير [1]"، وهذا ما يزيد تأكيدا على أن الإتصال بين تاهرت وتدمير كان عبر مدينة تنس، وذكر البكرى مسلكا بحريا بين تنس والأندلس وهو مسلك تنس- شنت بولcap de sante pola .

ويظهر أن هذا الطريق البحري الرابط بين تنس والأندلس له ميزاته الخاصة مقارنة بالموانئ الآخرى، إذ أنه يقلص المسافة الزمنية إذ سبق الإشارة إلى أن المراكب تقطع المسافة بين تنس وتدمير في يوم ليلة وكان يستعمل في فصول معينة من السنة، خاصة في فصل الصيف، حيث تسكن أمواجه التي تشكل عائقا في فصل الشتاء، مما كان يضطر البحريين الأندلسيين أن يشتوا في تنس [2]"

ومن خلال ما تقدم نلاحظ أن مدينة تنس اقتصرت أهميتها التجارية على حركة التجارة بين الأندلس والمغرب الأوسط – أنظر الخريطة- وبين المناطق المجاورة للمدينة، وهذا لوجود موانئ آخرى منافسة لها مثل وهران وتلمسان وسبتة وبجاية كما هو موضح في الجدول الآتي الذي يمثل مجموع عقود تجارية بين بعض مدن المغرب ومرسيليا في منتصف القرن7 هـ/13م.(1)

البلد	مجموع العقود
تونس	5 **عقود**
تنس+ الجزائر	1
تلمسان + وهران	2
وهران	4
سبتة	29
بجاية	83

[1] اليعقوبي: المصدر نفسه ص 353 .، ابن حوقل: المصدر السابق، ص 78

[2] البكرى: المغرب، ص 61

ويمكن أن نستنتج مما سبق ذكره أن تأسيس مدينة تنس ونموها كان بفضل موقعها التجاري والاستراتيجي وإذ كانت منطقة عبورا بين المناطق الداخلية لبلاد المغرب الأوسط وبلاد الأندلس، مما زاد من حركتها التجارية ووفود السكان من المناطق المجاورة لها واستقرار تجار من بلاد الأندلس، فكان تعميرها وزادت ثروتها وغناها وبنايتها، وأصبحت من أهم المدن في العصور الوسيط.

1انظر l.stouff: Les juifs d Arles et leurs relations avec les communautes de la mediterranee occidentale au bas moyen-age,Marseille,1982,p11

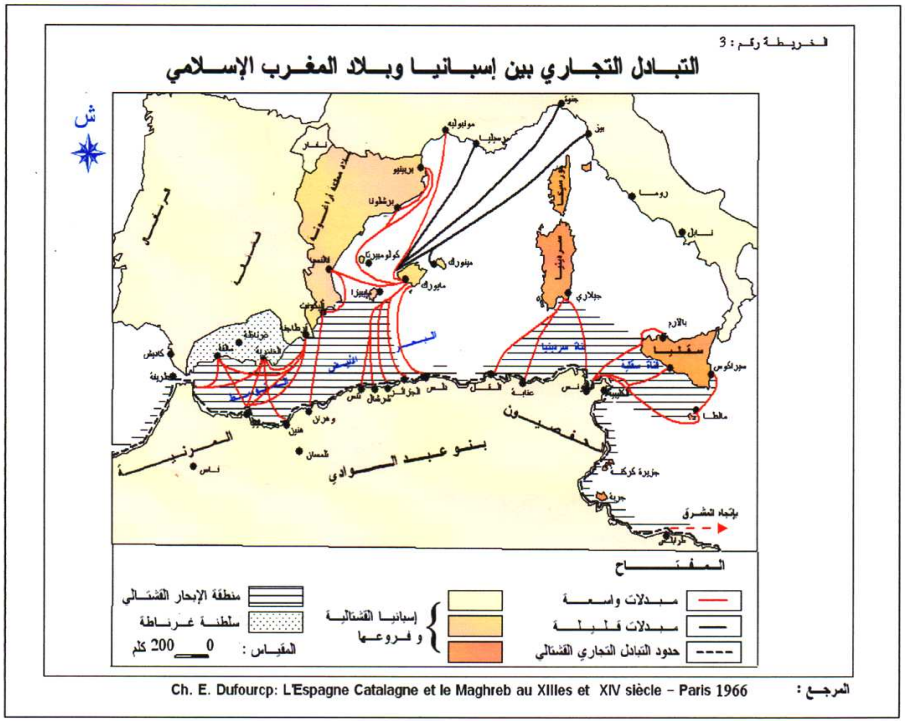

قائمة المصادر والمراجع:

I- المصادر والمراجع العربية:

1 المصادر:

1- ابن حوقل: صورة الأرض، بيروت، منشورات دار المكتبة الحياة، د- ت

2- ابن خلدون: المقدمة، القاهرة، 1967

3- ابن شباط: صلة السمط وسمة الرمط، قطعة في وصف الأندلس وصقلية، نشر أحمد مختار العبادى، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية، مدريد 1967

4- أبو رأس الناصر: عجائب الاسفار ولطائف الأخبار، تقديم وتحقيق المخطوط محمد عالم، الجزائر، مركز البحث في الأنثروبولوجية الاجتماعية والثقافية 2008

5- الإدريسي: صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، ليدن، مطبعة بريل، 1968

6- الاصطخرى: المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر عبد العال العيني، القاهرة، دار القلم، 1381 هـ/ 1961م

7- البكرى: المغرب في ذكر افريقيا والمغرب، باريس، طبعة دى سلان، د- ت

8- البكرى: جغرافية الأندلس وأوروبا، تحقيق عبد الرحمن على الحجي، بيروت، دار الارشاد، للطباعة والتوزيع، ط1، 1387هـ/ 1968م.

9- الحموى ياقوت: معجم البلدان، بيروت، 1957

10- مؤلف مجهول: كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، جامعة الاسكندرية، كلية الآدب، 1958.

11- اليعقوبي: تاريخ البلدان، بيروت، دار الفكر، 1375هـ/ 1356م.

المراجع:

1- الجنحاني الحبيب: المجتمع العربي الإسلامي، الكويت، مطابع السياسة، 2005.

2- جودت عبد الكريم يوسف: الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين (9- 10م)، الجزائر ، ديوان المطبوعات الجامعية، د- ت.

المراجع باللغة الأجنبية:

1- Braudel (F) : civilisation mlatériele et capitalisme, Paris 1967.

2- Bouayed (M.A) : le port de Hunayn, trait d'union entre le Maghreb central et l'Espagne au moyen –age, dans relations de la peninsula Iberica con El Maghreb siglos XIII^{e} XVI, actas del coloqiuo- Madrird 17-18 décembre, 1988

3- Dufourcq (ch. E) : l'Espagne catalagne et le Maghreb au XIII^{e} et XVI^{e} siècle-

4- Laroui (A) : l'histoire du Maghreb, Paris, 1970 Paris 1966

5- Lombard (M) : l'Islam dans sa première grandeur, (XIII^{e} XVI), Paris, 1971

6- Stouff (L) : les juifs d'Arles et leurs relations avec les communautés de la méditerranée occidentale au bas mouyen-age, Marseille, 1982.